

- التوكل والإتكال -

إذا طرحنا العبثية دبر آذاننا وانطلقنا من مبدأ الغائية الذي يقول أنّ الله أبدع الوجود من أجل غاية في ذاته وليس عبثاً، وأنّه تعالى نظم هذا الوجود بناءً على قوانين كل سبب فيها يتبع سببه، وأنّ هذه القوانين منغرزة في جوهر كلّ موجود غير عاقل قوانين جبرية نسميها قوانين الطبيعة، وفي جوهر العاقل الإنسان قوانين إختيارية نسميها قوانين العقل، لعلمنا أنّ الإنسان الذي أعطي وحده العقل والحرية هو غاية هذا الوجود. وأنّ جميع الموجودات مسخرة لخدمته بغية تطوره وارتقائه وقدرته على التواصل مع خالقه عبر هذه القوانين العقلانية التي هي سعادته وكمالها إذا استطاع أن يتناغم معها ويرى نفسه على مراها المضيئة بنور يضيء ولا يحرق ويهدي ولا يضل.

من هذا المنطلق أراد لنا الخالق تعالى أن نتوكل عليه عبر معرفته فقال: وما خلقتُ الخلق إلا ليعبدوني أي ليعرفوني. وقال لنا في كتابه العزيز: إنّ الله أقرب إلينا من حبل الوتين. وإنّ ما من نجوى إثنان إلا وهو ثالثهم، وما من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم. ومن آيات الكتاب العزيز: فإذا عزم فتوكل على الله. إنّ الله يحب المتوكلين. وأراد لنا الله أن نفهم من هذه الآية الكريمة أنّ الكسول توكله كاذب وليس بصادق وأنّ من لا يملك المروءة لا يصح توكله. وذلك بأنه طلب من المتوكل أن يكون أولاً صاحب عزيمة وصاحب قرار وإلا كان توكله كمن يضع ماءً في غربال. وقال تعالى أيضاً: وأقوض أمري إلى الله إنّ الله بصير بالعباد. وكيف يفوض الإنسان أمره إلى الله إذا كان لا يحترم قوانين الطبيعة التي نظم الله سبحانه بها وجود الموجودات فالإلكترونيات تدور في قلب ذراتها بناءً على قوانين، والأرض تدور حول نفسها وحول الشمس بناءً على قوانين والكواكب تسبح في أفلاكها بناءً على قوانين. فنحن أمام كون منظم بجميع كائناته ومكوناته لا مكان لفوضى أو عبثية، عند ذلك يصبح تفويض الأمر إلى الله سبحانه إحتراماً وتناغماً مع قوانينه الطبيعية في الموجودات غير العاقلة. ومع قوانين العقل وبديهياته المنغرزة في جوهر كل نفس بشرية في العاقل الإنسان. وما حجب تلك القوانين عن الرؤية إلا سوء أعمال البشر ومخالفتهم ومعاندتهم واستكبارهم على الحقائق الإلهية والقوانين

العقلانية. وقال تعالى أيضاً: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا وهو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون. والله سبحانه لم يكتب لنا إلا الخير والتوفيق. ولكن الله قال لنا أيضاً: ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. أي أن أعمالنا تعاد إلينا وهي التي تصنع أقدارنا وتضعنا في الأمكنة التي نستحق. والمؤمن يعرف ذلك ولهذا غدا توكل المؤمن احتراماً لإرادة نفوسنا منذ بدء التكوين.

ولهذا قال سقراط: من عرف نفسه عرف ربه لأن الربّ متربّع على عرش قلوبنا عبر حقائقه البديهية المطبوعة على جواهر تلك القلوب. وكثير من الناس من يخلط بين التوكل والإتكال فيخبيء سلبيات الثانية وراء إيجابيات الأولى. قال الإمام علي: إيّاك والإتكال على المنى فإنها بضائع الموتى. وهذا القول يستنبطن أن العلم والعمل هما مفاتيح التوفيق بعد التوكل على الله وتنقية النية من شوائب الكذب والنفاق.

أما ما قاله النبي الكريم في رده على ذلك الأعرابي أعقلها وتوكل إلا تأكيداً بأن الله سبحانه لم يهبنا العقل والحريّة زينةً لأشخاصنا بل لكي نفكّر ونميّز ونأخذ العبر ونختار بملء حريتنا ونكون مسؤولين عن اختياراتنا وأعمالنا. ولذلك قال تعالى في كتابه العزيز: اعتبروا يا أولي الألباب وأخذ العبر يكون بالعقل ملاحظةً وتجربةً وتعليلاً واستنتاجاً ولا يكون بالأوهام والخواطر.

والإتكال يتناقض مع إرادته تعالى في خلق البشر فهو عندما خلقهم أعطى لكل واحد منهم بصمته الخاصة به والتي تميّزه عن غيره. ليعلمه أنه يملك شخصيةً مستقلةً ويجب ألا يكون أحدٌ ظلاً لأحد أو امتداداً له أو استنساخاً عنه. والإتكال هو من هذا القبيل ولذلك هو كريمة في عيون الناس لأنه نقصٌ في المروءة وكريمة في عين الله لأنه يتناقض مع إرادة الله في أناسه.

قالت الأمثال في الإتكال: من يمتطي جمل جاره لا يصل إلى دياره، وقالت أيضاً: من اتكل على زاد غيره طال جوعه، والإتكال مذلةٌ وارتهاؤٌ ولهذا قال تعالى في كتابه العزيز: وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وقال الطاغرائي:

وإنما رجل الدنيا وواحدھا

من لا يعول في الدنيا على أحد

وقال أبو فراس الحمداني:

إذا كان غير الله للمرء عدة

أنته الرزاييا من وجوه القوائد

ونحن نقول كثير من الناس يطلبون الراحة والإباحة متكليين على أموال متلدة فيذهب المال ولا يبقى إلا سوء العمل والندامة حيث لا ينفع الندم.

كمال يوسف سري الدين

